تَلقي البَلاغيين المغاربة لشُروح كِتابَ مِفْتاح العُلوم فِي الفَضَاء البَلاغيِّ المغربيِّ القَدِيمِ

Moroccan rhetoricians receive commentaries on the book The Key to Science in the Ancient Moroccan Rhetorical Space

أشرف سليم[1]

[1]كلية اللغات والآداب والفنون جامعة ابن طفيل (المغرب)، achrafsalim1984@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/04/18 تاريخ القبول: 2020/10/26 تاريخ النشر: 2020/12/31

الملخص: مارس العلماء المغاربة القدماء التلقيّ، لا سيما حيال العلوم القادمة إليهم من المشرق، خاصة علماء البلاغة؛ فإن كان ثمة عدم إجماع وجود مدرسة نحوية أندلسية مثل مدرستي الكوفة والبصرة؛ فقد أصبح هذا الإجماع معضدافي البلاغة، خاصة حين يَلفِي قارئ تاريخ البلاغة المغربية القديمة كيف أن البلاغيين المغاربة لم يكتفوا بالإملاء والنقل عن كتب المشارقة و إنما حوّروا هذا التلقي، وصيروه حسب حاجات بيئتهم وخصوصيتها، وهذا ما تبدى في هذا البحث؛ إذ سعى فيه الباحث إلى بيان أن المغاربة لم يتلقوا بلاغة السكاكي في مفتاح العلوم فقط وإنما مارسوا ما يسمى)بتلقي التّلقي(؛ هذا ما سيدافع عنه الباحث في هذه الدراسة.

كلمات مفتاحية: تلقي التلقي؛السكاكي؛البلاغيون المغاربة القدماء؛ مفتاح العلوم.

Abstract: The ancient Moroccan scholars practiced receiving, especially with regard to the sciences coming to them from the East, especially rhetoric scholars. If there was a lack of unanimity in the existence of an Andalusian grammatical school such as the schools of Kufa and Basra،then this consensus became mutually reinforcing, especially when the reader of the history of ancient Moroccan rhetoric wraps how that Moroccan rhetoric not only dictated and conveyed the books of the East, but rather modified this reception, and it was adapted according to the needs of their environment and its specificity, and this is what appeared in this research, as the researcher sought to explain that the Moroccans did not receive the eloquence of Sakaki in the key to science, but rather practiced what It is called receiving a receipt and this is what will defend p He is the researcher in this study.

Keywords: receiving receive; Sakaki; the ancient Moroccan rhetoric;the key to science.

المؤلف المرسل: أشرف سليم، الإيميل: achrafsalim1984@gmail.com

1. مقدمة:

من عظيم ما جادت به قرائح علماء المسلمين البلاغةُ العربيّة؛ فهي الموصل إلى فهم كتاب الله عز وجل الذي تداعت إليه الأنام قراءةً وتقعيدًا وشرحًا وتفسيرًا؛ فمنذ انقطاع الوحي والمسلمون يجتهدون دون كلل كي يثبتوا أنهم خيرُ أمة أخرجت للناس؛ يتفحصون هذا الكتاب؛ ويتدبرون أسراره؛ فيخرجون بحكم وعلل كانت قانونهم الأسمى الذي يهتدون به.

لقد كان القرآن الكريم معجزا بفصاحته؛ فاحتاج المسلمون إلى علم يوصلهم إلى فهم مكنوناته وجواهره البلاغية؛ فكان البلاغةَ التي تعني: الوصول؛أي: الوصول إلى فهم الإرادة الإلهية في كتابها المصفى؛ لذلك أثر عن الأسلاف قولهم:(البلاغة ما بلغ بك الجنة،وعدل بك عن النار،وما بصرك بمواقع رشدك،وعواقب غيك).

إذًا؛ نبغ المسلمون قديما في هذا الفن،وأتقنوه أيما إتقان؛ فكانت كتب: الرماني وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري وصولا إلى أبي يعقوب السكاكي تعبر فعلا عن عبقرية تستحق التدوين والتأريخ والوقوف نحوها وقفة احترام وتقدير؛ لأن العقل العربي لم يكن أبدا بمعزل عن الإبداع بل كان في حد ذاته مبدعا منتجا يباهي الأمم بتألقه ونبوغه.

وبعد البحث في الموضوع لا يسع الباحث إلا أن يكبر في المغاربة وعيهم في تلقي هذه الخطابات وقدرتهم على تأويلها وتحويرها؛إذ لم يكن تلقيهم تلقيّا سلبيا أو اجترايا؛ بل كان تلقيًّا يحاور النصوص الآتية، ويكيّفها مع الخصوصية المغربية، فما في المشرق لا يصلح كله لما في المغرب ولعل ما يدل على هذه المحصلة كون تلقي البلاغيين اختلف بين تلقيين:

- تلقٍ وافق ما جاء به المشارقة لكن ليس على إطلاقه بل اختار المفيد والأنسب لدور العلم المغربية.
- تلقٍ آخر اعتد بمنتوجه،وأصبح مضارعا لنبوغ المشارقة إلى الحد الذي جعل هذا التلقي يشكل لنفسه مدرسة مستقلة عن أي تبعية أو انجرار.

بلاغة أبي يعقوب السكاكي أنموذج منير في هذا السياق؛ فهذا العالم الرباني احتوى الدرس البلاغي الذي سبقه، وجمعه في محصلة جامعة مانعة سماها: مفتاح العلوم كي يفتح به طالبه علوم الآلة التي يخبتُ إليها العباد لفهم أسرار التنزيل، هذا الكتاب وللحظوة التي حققها تداعت إليه الشروح والتلاخيص من كل فج عميق؛ فكان حظ المغاربة من ذلك بينا؛إذ انتدب خيرة علمائه لإدخاله إلى هذا البلاد.

في هذا السياق كان كتاب المصباح لبدر الدين بن مالك أول من أدخل هذا كتاب المفتاح فقد لخص صاحبه القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي عُني بعلوم البلاغة؛ فتلقاه المغاربة بالقَبول والشرح والانتشار، إلى أن حل الشرحان العظيمان اللذان خلقا رجَّة كبيرة في البحث البلاغي المغربي وهما: التلخيص للقزويني وشرح التلخيص للتفتازاني.

لعل الباحث حاول أن يقارب الموضوع وَفق آليات ومناهج تتغيَّا الوصول إلى نتائج ملموسة وهذا ما سيظهر في المباحث المقبلة.

2. مبادئ البحث

يفرض البحث التعامل وفق مجموعة من الآليات والمناهج الإجرائية التي تقتضيها البحوث العلمية فكل بحث لا يتسنم ذروة الأكاديمية والجدية إلا إذا كان بحثا يعتمد على المنهج،والرؤية الواضحة،واحترام أدبيات البحث العلمي الرصين؛ لذا فبحث:(تلقي التلقي عند البلاغيين المغاربة القدماء في كتاب مفتاح العلوم)، بحث حاول استثمار جميع الآليات التي تخدم الموضوع،وغرضه بطبيعة الحال تحقيق ما تصبو إليه البحوث العلمية الرصينة من الوصول إلى الجدة في البحث،والجديد في الأفكار لصالح المكتبة العربية.

لقد جمع البحث مادة عمله من مظانها ؛إذ رجع إلى أبرز الكتب التي تعامل معها ، و اعتمد على المنهج الاستقرائي فقام بتتبع المسألة المعنية بالدراسة و ما يتعلق بها ولم شتاتها ، كما حاول البحث عن الخيوط الناظمة لمسك تلابيب الموضوع وفك شفراته، واعتنى أيضا بالنصوص التأسيسية التي عبرت عن (تلقي التلقي) البلاغيين المغاربة كتابَ مفتاح العلوم ، وكان أمينا في نقل المادة العلمية ؛إذ نسب كل قول لصاحبه و وثق ذلك وَفق الصفحة والطبعة ، و حين ذكر البحثُ الأعلام كان دائما

يشير إلى سنوات وفاتهم جريا على عادة البحوث العلمية الرصينة ، دون إهمال علامات الترقيم المظلومة في البحوث العلمية، وكذا الحرص على احترام قواعد اللغة العربية المقدمة؛ إذ لا تقوم قائمة لأي بحث كيفما كان سوى باحترامها وإحلالها مكانتها السامقة.

وتم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي في البحث كله، مع استدعاء المنهج التاريخي في بعض جزئيات البحث وقتما اقتضت الضرورة إلى ذلك، أما رؤية البحث فقد كانت موجهة سنامها تلقاء الحفر في إشكالية أساسية في مرحلة مهمة من مراحل الدرس البلاغي في المغرب الأقصى، هي (تلقي التلقي) الذي مارسه البلاغيون المغاربة تجاه كتب المشارقة وعل رأسها كتاب مفتاح العلوم.

1.2 الدراسات السابقة:

يسلم البحث لما ذهب إليه الدكتور عبد الوهاب الأزدي من أن بحث تلقي البلاغيين المغاربة المتأخرين للسكاكي بحث قليل ونادر، لكن لا نذهب معه فيما قال:إن بحثه هو الأول في هذا الباب، يقول الدكتور عبد الوهاب الأزدي عن ذلك:» إن موضوع العلاقة بين السكاكي والبلاغيين المتأخرين لم تحظ بالدراسة التاريخية والوصفية والتحليلية الضرورية» (الأزدي، 2014، صفحة 13)

هذا الكلام يوجد عكسه؛ فقد وجد الباحث بعض الكتب التي طرقت الموضوع بكيفية أو بأخرى،مثل: كتاب السكاكي بين شراحه لمصطفى هوار،والمناهج النقدية والبلاغية إبان العصر المغولي للدكتور عمو عسو،وتلخيص المفتاح وجهود شارحيه لعبد الله رشدي.

مما يجعل البحث لا يساير الدكتور الأزدي في رؤياه ويعتقد أن البحث رغم ضآلة البحوث الأكاديمية العميقة عنه إلا أنه تم طرقه من قبل.

2.2 تعريف موجز بأبي يعقوب السكاكي:

لا شك أن لهذا الرجل صيتا عظيما في الثقافة العربية الإسلامية، فقد كان عَلما كبيرا وإماما متبعا في البلاغة العربية؛ فكتابه القيم الذي تركه (مفتاح العلوم) عد فتحا مبينا لطالبي علوم الآلة لما حواه من مفاتيح علوم النحو والصرف والبلاغة، بشكل عبر عن فلسفته وتفكيره ورؤيته لهذه العلوم اللغوية. ما

يلفت الانتباه أن أبا يعقوب السكاكي كان ذا إنتاج علمي غزير، وحظ مكتباتنا الحالية هو هذا الكتاب فقط؛ فهذا العالم خلف كتبا أخرى لم تصلنا إلى اليوم.

سنحاول في هذه اللحظة أن نقدم لمحة موجزة عن حياته تقربنا من نبوغه البلاغي على النحو الذي جعله إماما وهرما من أهرامات البحث البلاغي العربي على مر التاريخ.

– اسمه الكامل: سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد ابن علي السَّكَّاكي الخوارزمي الحنفي، كان ميلاده سنة: خمسة وخمسين وخمسة مائة هجرية (555) الموافق ل: تسعة وستين وإحدى عشرة وألف ميلادية(1169)، في خوارزم وهي منطقة توجد في غرب آسيا،ووافاه الأجل في قرية الكندي من قرى المالِيع كما أورد ذلك خير الدين الزركلي في سلسلة الأعلام. (الزركلي، 2002، صفحة 288، ج8)

لقب بالسكاكي نسبة إلى: مهنة السِّكاكة، (الحدادة) التي كانت تحترفها أسرته، إذ كانت معروفة بصناعة السكك، وبقي السكاكي يشتغل في صناعة المعادن إلى أن وصل إلى الثلاثين من عمره، فأحسن إتقان مهنته وصار ماهرا فيها حتى نال مكانة عالية عند أصحاب الشأن والأمر. أما مذهبه الفقهي فهو: حنفي المذهب، معتزلي العقيدة، كان تلميذا لفقهاء الحنفية في عصره أمثال: سديد الدين الحياطي،وابن صاعد الحارثي، محمد بن عبد الكريم التركستاني. (الحموي، 1993، صفحة 150،مج1) له تآليف عدة، كان حظ المكتبة العربية كتاب واحد وهو المفتاح، فمن بين تآليفه التي لم تصلنا لعاديات الزمن، والأزمات التي حلت بالأمة العربية الإسلامية:كتاب الجمل،وهو شرح لكتاب الجمل لعبد القاهر الجرجاني وكتاب التبيان والطلسم،وهو باللغة الفارسية،وله رسالة في علم المناظرة. (سلسلة الحضارة العربية، جزء الأعلام والمشاهير،1988، المجلد الحادي عشر، ص 4.

إذاً، كان مفتاح العلوم الكتابَ الوحيد الذي وصلنا؛ فأثار رجة كبيرة في البلاغة العربية، ما زالت أصداؤها إلى اليوم، رغم تطور الدرس البلاغي العربي وإفادته بشكل كبير من البلاغة الجديدة. ما يميز كتاب المفتاح أن صاحبه قسمه إلى أقسام ثلاثة، القسم الأول: خصصه إلى علم الصرف

والاشتقاق،والقسم الثاني إلى: علم النحو ومواضيعه، أما الثالث فقد خصصه إلى: علمي المعاني والبيان، أردف بعدهما بمبحث عن الفصاحة والبلاغة،وآخر عن البديع بمحسناته اللفظية والمعنوية.

لقد عد القسم الثالث من هذا الكتاب عمدة نبوغ السكاكي وما حقق له الذيوع والقَبول، خاصة أنه استوعب بشكل جلي كتب سالفه عبد القاهر الجرجاني(ه471) في كتابيه القيمين: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، بالإضافة إلى:الزمخشري (538ه) في الكشاف،وأيضا كتاب: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لمعاصره الفخر الرازي (606 ه).

الحاصل أن أبا يعقوب السكاكي سيبقى منارا مشعا في تاريخ البلاغة العربية،ومحط دراسات متعددة،والبحث اختار دراسة جزئية: (تلقي تلقي) كتاب مفتاح العلوم عند البلاغيين المغاربة القدماء، وهذا ما سنلمسه في صفحات البحث.

3.إشكالية العنوان:

العنوان هو عتبة النص،وبابه الذي لا مدخل غيره؛ لذا اختار الباحث التدقيق في العنوان،واختيار الدواعي التي جعلته يستقر على عنوان مستوف شروطَ الدقة العلمية المطلوبة في البحوث الأكاديمية، خاصة أن الباحث يسعى جاهدا للوصول إلى الحقيقة العلمية رغم نسبيتها وحَسبه أنه حاول تقديم أدلة يرى أنها كافية ومدعمة بالشواهد والحجج لتعضيد أطروحته وخلاصاته التي خرج بها.

بدءا اختار الباحث عنوان :(تلقي التلقي) كتاب مفتاح العلوم عند البلاغيين المغاربة القدماءالمتأخرين ، وتَكرارنا لفظة التلقي ليس من قبيل التوكيد اللفظي الذي يؤكد المؤَكد عبثا، أو هو من قبيل الحشو في الكلام ، بل هو زيادة لها من الدلالات و الأبعاد ما جعل الباحث مصمما على وضعها ، فكل كلمة ملزمة لصاحبها كما يقول أهل القانون ، لذا فاعتقادنا أن تلقي البلاغيين المغاربة لم يكن أولا للسكاكي مباشرة كشخص (لمس الباحث هذه الحقيقة في بحث الدكتور عبد الوهاب الأزدي في رسالته للدكتوراه بكلية الآداب بمراكش). ، كما حدث و لامسه الباحث في رحلة بحثه عن الموضوع في البحوث الأكاديمية القليلة عنه ، بل المغاربة تلقوا كتابه مفتاح العلوم ، وبالضبط القسم الثالث، وأيضا إذا أردنا التدقيق فأشهر البلاغيين المغاربة ، خاصة القدماء

أصحاب الريادة و الرياسة لم يتلقوا في الحقيقة كتاب مفتاح العلوم ، بمعنى لم يتأثروا به مباشرة ، بل تلقوا أكثر شراحه خاصة : كتاب شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني (791 هـ) ، و تلخيص المفتاح للقزويني (739 هـ) ، وهذا سيتضح في الأنموذج التطبيقي الذي سيأتي في مطاف البحث.

لقد تلقى البلاغيون المغاربة إذًا كتابَ مفتاح العلوم وتأثروا كثيرا بشراحه؛ فكانت استنتاجات هؤلاء الشراح بادية على أفكارهم البلاغية، لذا اختار الباحث دراسة كيف تلقى البلاغيون المغاربة القدماء كتاب مفتاح العلوم؟ولماذا تأثروا بشراحه أكثر منه؟ أي إنهم تلقوا تلقي العلماء قبلهم له مما جعلهم يكونون (تلقي التلقي).

4. سياق تلقي التلقي البلاغيين المغاربة مفتاح العلوم:

يطرح هذا المبحث إشكالات متعددة، فهو من جهة يحدد درجة تلقي العلماء المغاربة هذا الكتاب،والآليات التي وظفوها في هذا التلقي، خاصة أن العصر الحديث شهد ظهور نظرية جديدة سميت بنظرية التلقي،ومن جهة أخرى يبرز إشكالٌ آخرُ حول إسقاط هذه النظريات الحديثة على العقل العربي التراثي مما سيخرج بنا إلى أسئلة نمطية أصبحت مشاعة اليوم، من قبيل:هل عرف العلماء الأقدمون التلقي؟ هل نظرية التلقي الحديثة سباقة إلى ظهور هذا الفن الذي ما هو إلا تفاعل ديناميكي بين القارئ والنص الأدبي؟

بدءا يمكن أن نقول : إن التلقي بمفهومه الواسع لم يكن مغيبا في ثقافتنا العربية الإسلامية ، فهو مذكور لفظا و معنى ، أولا في القرآن الكريم ، في آيات كثيرة : ﴿فتلقى ءادم من ربه كلمات فتاب عليه﴾(البقرة، الآية 36)، ﴿وإنك لتُلقى القرءان من لدن حكيم عليم﴾(النمل الآية 6) ، ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾(فصلت، الآية 34)... و ثانيا مذكور أيضا في كتابات أسلافنا ، وهي كثيرة ومتعددة ، وحسبنا أن نأخذ نصا لعبد القاهر الجرجاني جدير بالتحليل و الأقيسة نثبت به دون مراء أن علماءنا كانوا يتلقون الخطاب القرآني، ويحللونه لإثبات أوجه الإعجاز و يحاولون إقناع متلق مفترض بجدوى أفكارهم، لنرَ مثالا لعبد القاهر الجرجاني يحلل فيه قوله تعالى: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾(البقرة، الآية95) ، فهو يخاطب المتلقي بقوله: "إذا أنت راجعت

نفسك، وأذكيت حسك، وجدت لهذا التنكير وأن قيل (على حياة) ولم يقل (على الحياة) حسنا وروعة ولطف موقع لا يُقادَر قدره، وتجدك تعدم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافها. والسبب في ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها، وذلك أنه لا يحرص عليه إلا الحي، فأما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة وعلى غيرها. وإذا كان كذلك صار كأنه قيل: (ولتجدنهم أحرص الناس ولو عاشوا ما عاشوا، على أن يزدادوا إلى حياتهم في ماضي الوقت وراهنه، حياة في الذي يستقبل" (الجرجاني، 1992، صفحة 288).

المتأمل في هذا الكلام يرى حقا أن الجرجاني يحاول إقناع المتلقي بفكرة الإعجاز القرآني عن طريق الألفاظ المستعملة ؛ فكل لفظة ، بل كل حرف إلا و له دلالة عميقة مما يلزم التصديق بإعجاز القرآن الكريم ، و محاولة إقناع متلقي هذا الكلام بفحواه و جدوى كلامه ، تقول في هذا الإطار الدكتورة مليكة حفان : (من الواضح أن عبد القاهر الجرجاني، من خلال هذا النص، يوجه خطابه إلى متلق يفترض وجوده، ويهدف إلى التأثير فيه وإقناعه بوجهة نظره في الإعجاز القرآني الذي هو، حسب رأيه، راجع إلى النظم والتأليف؛ يظهر ذلك في استعماله لضمير "أنت" (إذا أنت راجعت نفسك، وأذكيت حسك... وتجدك تعدم ذلك مع التعريف). إن الجرجاني حريص على توجيه المتلقي إلى تأمل الآية، والقرآن عموما، وإمعان النظر والفكر ليقف على أسرار الإعجاز). (حفان)

هذا الكلام ما هو إلا نزر قليل من إثبات أن الأقدمين عرفوا التلقي ، و مارسوه ، ولم تغب عنهم كما تقول حفان : (النظرة الموضوعية إلى ما كتبه علماؤنا عند تعرضهم بالبحث والدراسة للشعر العربي والخطاب القرآني، تثبت أنهم قد عرفوا هذه النظرية، ولكن ليس بنفس مفاهيم ومصطلحات نظرية التلقي الألمانية، ولا بنفس الخلفية الفلسفية والنقدية التي ارتكزت عليها، وبحثوا قضاياها ولكن بعناوين ومسميات انبثقت من طبيعة الثقافة العربية، ومن الظرفية التاريخية التي أُنتجت فيها؛ وأنهم فعلا قد سبقوا المناهج الغربية إلى الحديث عن العلاقة الوثيقة التي تربط النص بمتلقيه). (حفان)العلماء الأقدمون إذاً مارسوا التلقي ، فالناظر مثلا إلى علم الحديث الذي يعنى بدراسة الطرائق الموصلة إلى المتن النبوي روايةً و درايةً يلاحظ أنه من العلوم التي تفخر بها الأمة الإسلامية بين سائر الأمم ، فهو

يقتضي من الدقة و الأمانة أن يتم تلقي النص النبوي من مصادر لا تشوبها اختلالات أو عَوجٌ تذهب بروح النصوص المؤسسة للإسلام دينا سماويا آخر ما أنزله الله على العالمين ؛ لذلك فالبحث يسلم أن علماءنا عرفوا التلقي و لكن ليس بالآليات و المناهج نفسها التي جاءت بها نظرية التلقي الحديثة ، فأي إسقاط لمفاهيم هذه المدرسة الألمانية على النصوص العربية التراثية نراه في غير محله ، فهو أولا يغمط هؤلاء العلماء قدرتهم على إثبات أنهم مارسوا فعل التلقي عملا و منهجا ، و ثانيا بالنظر إلى خصوصية النصوص البلاغية التي تتميز بالعلمية و الرغبة في الوصول إلى فهم كلام الله تعالى و إثبات فصاحته، فهي ليست نصا شعريا ، وإن كنا نستخدم البلاغة لإثبات فصاحة النصوص الشعرية ، لكن و الحالة أن الغرض الأول الذي جاءت من أجله البلاغة و هو خدمة كتاب الله ، يجعل إسقاط هذه النظرية عبثيا حسب رأي الباحث .

وعودة إلى سؤال هذا المبحث وهو: كيف تلقى البلاغيون المغاربة كتاب مفتاح العلوم؟ يفرض علينا التسليم أن مفتاح العلوم كانت مسالكه صعبة، مغرقة في علوم المنطق المبهمة، يقول أحد علماء القرن العشرين، العالم الأزهري مصطفى المراغي:(كان المنطق والفلسفة سلطانا مطاعا لا يرد له قول،ولا ينقض له أمر،وأصبحت الأساليب العربية تقاس بحدود المنطق ورسومه ... حتى بلغ الأمر بالسكاكي أن ادعى في مفتاحه أن الاستعارة والكناية وغيرها من مسائل علم البيان، ما هي إلا أقيسة منطقية،والزامات استعملها المتكلمون لإقناع المخاطبين بما يريدون إثباته ونفيه من نظريات) (المراغي، 1948، الصفحات 23-28).

كلام هذا العالم الأزهري يفرض علينا التسليم بأن السكاكي طغت على بلاغته الفلسفة، يقول في هذا الإطار الشيخ أمين الخولي:(مآخذ الدارسين على بلاغة السكاكي وهي: طغيان الفلسفة على البلاغة، في منهج البحث ولغته وغاياته، اختصار بحثها في الألفاظ وفي حدود الجملة غالبا، إهمال البحث في عنصر المعنى، استهداف مطابقة الكلام البليغ لمقتضى الحال مع غلبة النظر إلى الحال أو المقام على أنه عامل خارجي، إهمال لحال المتكلم مع أنه هو مبدع الكلام الذي يجب أن يتجه إليه بعملية المطابقة) (الخولي، 1961، صفحة 162).

الكلام السابق يحتم علينا أن نطلق حكما لا نعتقد أنه حكم قيمة،مؤداه: أن بلاغة أبي يعقوب السكاكي غرقت في بحر الفلسفة والمنطق،وكثرة التقسيمات والتفريعات مما ينافي هدف هذا العلم وغايته التعليمية الموصلة إلى معرفة كتاب رب الأرباب مصداقا لقول الأسلاف المشهور (البلاغة ما بلغ بك الجنة،وعدل بك عن النار،وما بصرك بمواقع رشدك، وعواقب غيك). لقد أكثر السكاكي من تشعب المواضيع الواحدة مما حذا بمن جاء بعده إلى إزالة الطلاسم التي أحيطت به؛ فكانت الشروح والتلاخيص التي اكتنفت هذا الكتاب هي: الفتح المبين لهذا المفتاح العظيم.وما يهمنا في هذه اللحظة هي: رؤية تلقي البلاغيين المغاربة لهذا الكلام.

5. تلقي التلقي البلاغيين المغاربة القدماء كتاب مفتاح العلوم:

نسلم بشكل قطعي أن بلاغة مفتاح العلوم شابها التعقيد و الإغراق في الفلسفة و الطابع التجريدي ؛ فكان المغرب يحتاج في إطار تلقيه هذا الكتاب شرحا مختصرا ملخصا يوضح ما انبهم ، و يجمل ما فصل ، و يقيد ما أطلق ؛فكان أول كتاب اعتنى بكتاب مفتاح العلوم ، وبالضبط القسم الثالث كتابَ المصباح في علم المعاني و البيان و البديع لبدر الدين بن مالك الأندلسي الطائي ، بقول الدكتور عبد الوهاب الأزدي عن هذا الشرح المهم في إطار تلقي البلاغيين المغاربة القدماء لكتاب مفتاح العلوم ما يلي :(منذ كتاب المصباح لبدر الدين بن مالك الأندلسي، والذي قدم فيه مختصرا للقسم الثالث من كتاب السكاكي ، سيكتسح المفتاح الأفق المغربي، وسيصبح مادة للاستهلاك الجماعي ، يتناول مضمونَه المتأدبون والشراح و المفسرون و النقاد ، لقد أصبح سلطة مرجعية محددة (الأزدي، 2014، صفحة مقدمة البحث)).

كلام الدكتور عبد الوهاب الأزدي يَعضُدُ الفكرة التي انطلق منها الباحث ، كون البلاغيين المغاربة لم يتلقوا كتاب مفتاح العلوم مباشرة ، بمعنى لم يخلق تلك الرجة في البنية الذهنية لديهم بقدر ما خلقتها الشروح التي التفت حول المفتاح ؛ فكان أولها :كتاب المصباح في علم المعاني و البيان والبديع لبدر الدين بن مالك الأندلسي الطائي ؛إذ يعد أولَ مختصر للقسم الثالث لكتاب مفتاح العلوم ، و شكل هذا الكتاب الرجة الحقيقية في البنية الذهنية المغربية فقد التفتت حوله شروح وتلاخيص و أراجيز و

منظومات شكلت بحد ذاتها برامج تعليمية في المدارس و الزوايا والجامعات خاصة في الجامعة اليوسفية و القرويين دور العلم و مرابض الإيمان في المغرب الأقصى، فإذا طالعنا تعامل البلاغيين المغاربة القدماء مع هذا الكتاب سنجدهم تعاملوا معه بالشرح و النظم والتلخيص أكثر مما تعاملوا مع المفتاح نفسه ، و تطالعنا هنا تلاخيصهم لهذا الكتاب مثل : ضوء المصباح لبدر الدين محمد بن يعقوب الحموي المكنى بابن النحوية (718هـ) ، و أردفه بشرح عليه في مجلدين كبيرين سماهما : إسفار الصباح عن ضوء المصباح ، و تعرض كتاب المصباح أيضا للنظم ، فقد نظمه عبد الله بن عبد الرحمن الضرير المراكشي (807هـ) ، في رجز سماه :ترجيزالمصباح في اختصار المصباح، وخصه أيضا بالشرح إسوة بصنوه ابن النحوية، في شرح سماه :ضوء المصباح على ترجيز المصباح.

لقد شكل المصباح حركة هامة في تلقي البلاغيين المغاربة لكتاب مفتاح العلوم ، كما شكل أيضا مصدرا بلاغيا للشروح البلاغية الأخرى التي اكتنفت كتاب المفتاح ، خاصة إيضاح القزويني و تلخيصه ، ومختصر السعد التفتازاني و مطوله ، والفوائد الغياثية لعضد الدين الإيجي ، و عروس الأفراح للبهاء السبكي ... هذه الشروح ستشكل عُمدا فيما أسماه الدكتور عبد الوهاب الأزدي :(الفضاء البياني المغربي) ، و برامج تعليمية في حلقات العلم ، و الزوايا والمعاهد و الجامعات ، يقول الدكتور عبد الوهاب الأزدي :(إن الذين كتبوا في بلاغة المفتاح من المشارقة و المغاربة ، اتخذوا طريق تلخيص القزويني وشروح التفتازاني خاصة ، فكان ما كتب عن القزويني و التفتازاني يفوق بكثير ما كتب عن أصلهما المفتاح). (الأزدي، 2014، صفحة مقدمة البحث) وكلام الدكتور حقيقة صريحة تتمثل في أن البلاغيين المغاربة تلقوا شروح مفتاح العلوم ؛ مما يجعلنا نستسيغ عنوانا آخر للبحث قد نرتضيه فنسميه :تلقي البلاغيين المغاربة شروحَ مفتاح العلوم ، فقد كتب البلاغيون المغاربة كثيرا عنهذين الشرحين أكثر من غيرهما ، وسنعطي نماذج مبثوثة تثبت صحة هذا الكلام :

1- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لأبي العباس أحمد بن محمد ابن يعقوب الولالي(ت 1128 هـ).

2- مراقي المجد الآيات السعد، لأبي العباس أحمد بن علي بن عبد الله المنجور (ت 995 هـ).

ج- نفائس الدرر في حواشي المختصر، لأبي علي الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي (ت 1102 هـ).

د- حواشي المختصر السعدي، لابن الطيب الشرقي (ت 1170 هـ).

هـ- شرح التبيان في علم البيان، لمحمد بن عبد الكريم المغيلي(ت 909 هـ).

بعد المصباح، اكتسح شرحا الخطيب القزويني والسعدالتفتازاني ما أسماه الدكتور الأزدي: الفضاء البياني المغربي، مما يجعل الباحث ملحاحًا على إعطاء أنموذج تطبيقي يوضح بحسب لغة الأرقام والشواهد كيف أن البلاغيين المغاربة تأثروا كثيرا بهذين الشرحين المتفرعين عن طودهما مفتاح العلوم، هذا ما سنلمسه حين سنقدم أنموذج أبي زيد عبد الرحمن ابن محمد الصغير الأخضري (ت 983 هـ)، في إرثه العظيم الذي تناقلته الأجيال،واستفادت منه الآنام: الجوهر المكنون في الثلاثة فنون، هذا ما سيتم توضيحه في المبحث التالي.

.6تأثر الأخضري بالشرحين وتجلي ذلك في متنه

سلمنا أن البلاغيين المغاربة تأثروا بشروح كتاب المفتاح ، خاصة شروح القزويني و التفتازاني ، لكن الحاجة إلى تعلم هذا الفن الموصل إلى فهم كتاب الله استدعى البلاغيين المغاربة إلى تأليف كتب ، ونظم متون تبسط أهداف هذا العلم ، و تقرب رؤاه و فوائده و فرائده ؛فكان الجوهرَ المكنون جوهرا فتح الله به على كثير من طلاب العلم لمسك مقابضه ، و ضبط تلابيبه ، وسبر أغواره ، و ما يهمنا في هذه اللحظة هو تفحص المصادر التي اعتمدها الأخضري في جوهره فهي التي ستثبت لنا مدى تأثره بالمفتاح من غيره ، و بعملية تقتضي التتبع و الاستقراء ، ألفينا الأخضري قد تأثر فعلا بالشرحين اللذين شكلا قصب السبق في تأثر المغاربة بمفتاح العلوم؛إذ يشكل التفتازاني ، و القزويني عمدة في هذا المتن العظيم ، و يتوضح ذلك فيما يلي :

أ – شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني:

ذكره الأخضري18مرة،وقد اعتمده في آراء متعددة،ولم نر معارضة له حين كان ينقل عنه، بل لم يناقشها أو يورد خلافا لها،وقبل إيراد الأدلة المبثوثة عن هذه الأحكام، لا ضير أن نذكر العوامل التي جعلت الأخضري يخص التفتازاني بهذه الحظوة في متنه المبارك،ويمكن أن نعدها في الأتي:

- أولا يتمثل في جمع التفتازاني في شرحه آراء عبد القاهر الجرجاني، في كتابيه العظيمين: أسرار البلاغة،ودلائلالإعجاز، فهذان الكتابان نسغ علم البلاغة العربية،وأساسها المكين (ضيف،، 1998، صفحة 355).

- ثانيا، شرح التفتازاني جمع فيه مؤلفه العديد من المصادر التي أرخت سدولها في الثقافة العربية، مثل كتاب: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (ت 637 هـ)،وأيضا كتب:الجوهري،والمبرد،والزجاجي،والمرزوقي،وابنسينا،والزمخشري.

- ثالثا، كون هذا الشرح المبارك خير الشروح عند المتأخرين؛ فقد عدوه خير الشروح عند المتأخرين (ضيف،، 1998، صفحة 144).

- رابعا،التفتازاني ألف هذا الشرح للرد على اعتراضات القزويني على السكاكي، إذ زاوج بين بائن الأفكار، انتصر للسكاكي،ودافع عنه، بل واتهم التفتازاني القزويني في عدم قدرته على فهم كلام الأسلاف،خاصة: عبد القاهر الجرجاني (عتيق، 1999، صفحة 43).

هذه العوامل نراها متعاضدة، تجعلنا نقر أن الأخضري تأثر بشارح السكاكي الأبرز لديه،وهو: سعد الدين التفتازاني،ويتمخض ذلك في التتبع الذي قام به الباحث وحاول جرده في هذه الجدول:

القسم	المسألة محل الاستشهاد	المجموع
التمهيد	ال التعريفية يقصد بها الاستغراق	1
معنى البلاغة	بعض الآيات أعلى طبقة من بعض في البلاغة	1
	أغراض تعريف المسند إليه بالعلمية	14

علم المعاني	تساوي الموصول والمعرف بأل في الرتبة	
	أغراض تعريف المسند إليه بالإشارة	
	تعريف المسند إليه بأل	
	اللام في اسم الفاعل واسمالمفعول موصول لا حرف تعريف	
	العطف على المسند إليه	
	أغراض تقديم المسند إليه	
	الالتفات	
	إفراد المسند	
	تقييد المسند بأداة الشرط	
	وقوع المسند جملة	
	متعلقات الفعل	
	متعلقات الفعل	
	قصر التعيين	
علم البديع	تعريف علم البديع	2
	جناس الإشارة	

إثر هذه الخطاطة، يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

– لقد أكثر الأخضري من الاستشهاد بآراء التفتازاني في مسائل علم المعاني وذلك للرابط المشترك بين هذا العلم والنحو؛ مما يدل على اعتماد صاحب الجوهر على هذا العالم فهو نحوي بارع متمكن من هذا الفن.

– الملاحظة الملفتة للنظر وهي وجود استشهادين فقط في فن البديع، يؤكد ثبات هذا العلم ومسائله سواء عند القدامى والمتأخرين.

– الملاحظة الأخرى تبدو في عدم استشهاد الأخضري بالتفتازاني في مسائل علم البيان مما يؤكد حقيقة ظاهرة مؤداها: أن مسائل هذا العلم انتهت واكتملت أضلاعها عند المتأخرين، خاصة عند كتاب أسرار البلاغة للعلامة الجرجاني،وكل من جاء بعد يجتر أفكاره أو يكررها.

إذاً نستنتج أن الأخضري اعتمد كثيرا على السعد التفتازاني؛ إذ يمكن أن نعتبره المصدر الأول والأكثر المبثوث في متنه الجوهر المكنون. بعد ذلك ننتقل إلى المصدر الثاني الذي تأثر به الأخضري وهو القزويني؛ إذ بعملية التتبع التي قمنا بها نلاحظ ما يلي:

ب تلخيص المفتاح للقزويني:

استشهد به الأخضري في 14مسألة،ومما لا يدع مجالا للشك تصريح صاحبه بذلك مباشرة دون مواربة أو حجاب في قوله:

ملتقطا من درر التلخيص جواهر بديعة التلخيص

سلكت ما أبدى من الترتيب وما ألوت الجهد في التهذيب

معنى هذين البيتين: أن الأخضري تماشى في ترتيبمتنه مع ترتيب شرح القزويني مفتاحَ العلوم،وتبدو الحاجة إلى هذا الشرح العظيم كونه من أهم الشروح إلى جانب شرح التفتازاني، وأيضا فقد حوى جميع المسائل البلاغية التي يحتاجها طالب العلم ليغذوَ في مسالكه بثبات وحسن تدبر.

وفيما يلي جرد للمسائل التي اتبع فيها الأخضري القزويني في متنه الجوهر المكنون:

القسم	المسألة محل الاستشهاد	المجموع

علم المعاني	تقديم اسم الموصول على اسم الإشارة في تعريف المسند إليه	5
	العطف على المسند إليه	
	تقديم المسند إليه لغرض الاهتمام	
	تخصيص المسند إليه	
	قصر التعيين	
علم البيان	الاستعارة التخييلية والمكنية	1
	الموافقة وهي عند القزويني مراعاة النظير	8
	المقابلة ضمن المطابقة	
	التقسيم	
	عدد المحسنات اللفظية	
	الجناس وهو التجنيس عند القزويني	
	التدبيج	
	الائتلاف	
	التجريد	

نسجل هنا مجموعة من الملاحظات المبثوثة:

أ – استشهد الأخضري بالقزويني في مسائل علم البديع، كما تظهر الخطاطة ذلك،والقزويني خالف كما هو معلوم البلاغيين في المصطلحات البلاغية،ويبدو أن الأخضري يميل إلى المصطلحات التي جاء بها القزويني رغم أنه يورد التعاريف المتعددة للمصطلح الواحد وينتهي به المطاف إلى اعتماد مصطلح القزويني.

ب – تحتل استشهادات الأخضري بالقزويني في مسائل علم المعاني المرتبة الثانية،وذلك عائد حسب رأي الباحث إلى أن القزويني لم يرتض بعض المسائل التي اعتمدها السكاكي في هذا الفن يقول القزويني عن ذلك: إلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة. إذ يبدو أن القزويني ناقش السكاكي معتمدا في ذلك على آراء الشيخ عبد القاهر الجرجاني.

ج احتلت مسائل علم البيان المرتبة الثالثة مثلما رأينا مع التفتازاني،وذلك راجع كما قلنا سلفا إلى أن مسائل هذا العلم كانت محل اتفاق بين القدامى والمتأخرين، لذلك لم يخالف تقريبا الأخضري إجماع الأمة في مسائل هذا الفن.

لم يقف تلقي الأخضري الأنموذج المغربي الذي قدمناه في تلقي البلاغيين المغاربة القدماء كتاب مفتاح العلوم عند شارحيه، إذ تعامل الأخضري مع هذا الكتاب المبارك مباشرة دون شرح في المواضع التي سنقدمها فيما يلي:

ج مفتاح العلوم للسكاكي:

تعامل السكاكي مع كتاب مفتاح العلوم مباشرة ، و لم يستعن بشارحيه كما مر في المواضع التي أسلفنا ذكرها ، لكن ليس بنفس العدد و الاهتمام الذي اهتم به الأخضري ، فبالاستقراء و التتبع نجد أنه استعان بالسكاكي في عشرة مواضع ، ولعل ذلك راجع كما قلنا إلى حجب تلخيص القزويني ، و أيضا التفتازاني القيمة التي كان يحتلها مفتاح العلوم فقد أغرق هذا الأخير في التعقيد ، و الفلسفة و المنطق ، و المتلقي كان بحاجة إلى التلخيص و الشرح و التبسيط كي يقبض تلابيب هذا العلم ليقربه إلى فهم كتاب الله عز و جل ، و فيما يلي سنرى في هذه الخطاطة المواضع التي اعتمد فيها الأخضري على السكاكي :

القسم	المسألة محل الاستشهاد	المجموع
علم المعاني	متعلقات الفعل	3

	قصر التعيين	
	مواضع الوصل	
علم البيان	مفهوم الاستعارة	2
	الاستعارة المكنية والتخييلية	
علم البديع	المبالغة	5
	الترديد	5
	التلويح	
	التعريض	
	الإيماء	

من خلال ما سبق يمكن أن ندون مجموعة من الملاحظات تبعا للخطاطة:

أ- أكثر الأخضري من الاستشهاد بعلم البديع وذلك راجع إلى أن الأقوال في هذا العلم قد أسهب فيها القول،وتوسع فيها المتأخرون بعد السكاكي، يقول هذا الأخير تماشيا مع هذا الكلام: فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت وتقلب كلا من ذلك ما أحببت.

ب جاءت شواهد علم المعاني في المرتبة الثانية، كون الأخضري طعم هذا الشرح بآراء السكاكي في هذا العلم، لكون مفتاحه يعد خلاصة بلاغية ضمت أهم اجتهادات البلاغيين السابقين.

مما سبق طرقه ، يمكن أن نقول إن الأخضري اعتمد بدرجة كبيرة على هذه المصادر البلاغية الثلاثة والتي رأى فيها مادة أساسية استغلها في تبسيط شرحه و تقريبه للطلبة ؛لأنها ميسرة المادة ، واضحة المنهج ، خاصة الكتابين الأولين و جاء ترتيبها من الأسهل و هو شرح التلخيص ، إلى السهل وهو تلخيص المفتاح

، و أخيرا الصعب نوعا ما و هو مفتاح العلوم ، و من ثم نرى أن الأخضري ساير الغاية التعليمية التي تأسس بموجبها علم البلاغة ، ليكون تلقيه كتابَ المفتاح تلقيا يعكس قدرته على تقديم فهم جيد لهذا الكتاب ، و تقديم تلق إيجابي يثبت أن القدماء مارسوا فعل التلقي .

خلاصات ونتائج:

بعد الانتهاء من هذا البحث بوسع الباحث أن ينتهي إلى أن المغاربة لم يكونوا أبدا سلبيين في تلقيهم كتاب مفتاح العلوم ، فكما تلقوا الفقه الإسلامي في السابق الآتية رياحه من الشرق ؛ فاختاروا المذهب المالكي المعروف بالوسطية و الاعتدال ومسايرة الحياة العامة للمغاربة فنجحوا في ذلك وأصبحوا أنموذجا يحتذى في تصديره للدول المجاورة ، خاصة الغرب الإفريقي فالأمر نفسه ينطبق على البلاغة فقد فطن أسلاف بلاغيي المغرب إلى أن كتاب مفتاح العلوم يحتاج إلى شرح ومن ثم لا يمكن أن يدخل هذا الكتاب إلى الثقافة المغربية دون توضيح مبهمه ، و تفصيل مجمله ، و هذا ما تم بالفعل من خلال حركة الشروح و التفاسير مما جعلهم في الأخير يكونون ما سميناه(تلقي التلقي).

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.
2. الأزدي، عبد الوهاب(2014) تلقي السكاكي في الفضاء البياني المغربي، بحث لنيل شهادة الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش.
3. الجرجاني، عبد القاهر(1992) دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة.
4. المراغي، مصطفى أحمد)(1948تاريخ علوم البلاغة والتعريفبرجالها، دار النشر كتب التراث.
5. الزركلي، خير الدين،الأعلام، الناشر دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر ماي 2002.
6. الحموي،ياقوت(1993) معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأدي، تحقيق إحسان عباس، عدد المجلدات سبعة، الناشر دار الغرب الإسلامي.

7. القزويني، جلال الدين(1998) تلخيص المفتاح في المعاني والبيانوالبديع، قرأه وكتب حواشيه وقدم له الدكتور ياسين الأيوبي، دار النشر المكتبة العصرية بيروت.

8. التفتازاني، سعد الدين(1993) شروح التلخيص، وقد وضع بالهامش كتاب الايضاح لمؤلف التلخيص جعله كالشرح له، وحاشية الدسوقي على شرح السعد، طبعة مؤسسة دار البيان العربي.

9. الخولي،أمين(1961) مناهج التجديد في النحو والبلاغةوالتفسيروالأدب، دار المعرفة، الطبعة الأولى.

10. ضيف،شوقي(1998) البلاغة تطور وتاريخ، الناشر دار المعارف، طبعة 12.

11. عتيق، عبد العزيز(1999) علم البيان في البلاغة العربية، الناشر دار النهضة العربية.

12. حفان ، مليكة ، نظرية التلقي في التراث البلاغي العربي (2013)، مجلة الإحياء الموقعالإلكتورنيhttp://www.arrabita.ma/blog.